﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المؤمنون: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ يقظةِ المؤمنين إلى غفلةِ الكافرين

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السّابقة أعمالَ المؤمنين المُسارعين في الخيرات، وأنَّ الله تعالى لم يكلّف النّاس فوق طاقتهم ووُسعِهم، وأنَّ دين الله تعالى يتّصفُ بما فيه مصالح العباد في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ كلَّ أعمالِ النّاس مسجّلٌ في صحائف أعمالهم، ولا يُظلمون شيئًا، ناسبَ أنْ يُردَف هذا ببيانِ حالِ المُشركين، وأنَّهم في غفلةٍ عن هذا الّذي بُيّن في القرآن، ولهم أعمالُ سوءٍ أُخرى من فنون الكُفر والمعاصي والطُّغيان، كطَعْنِهم في القرآن واستهزائِهم بالنبيِّ ﷺ، وإيذائِهم للمؤمنين[1]، وغير ذلك ممّا هو واقعٌ منهم من سوءِ أعمالهم الّتي أُغرِقوا فيها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَمْرَةٍ﴾: (غمر) أصلٌ يَدُلُّ على تَغطيةٍ وسَتْرٍ في بعض الشِّدَّة، من ذلك الغَمْرُ: الماءُ الكثيرُ؛ وسُمّيَ بذلكَ لأنَّهُ يَغْمُرُ ما تحتَهُ[2]، ويُقال: هذا رجل غُمْرٌ - بضم الغين وإسكان الميم - إذا غطّاه الجهلُ وجعلَه لا تجربةَ له بالأمور، ويُقال: هذا رجلٌ غِمْر - بكسر الغين - إذا غطَّى الحقدُ قلبَه[3]، والمُرادُ بالغَمْرة هنا: الجهالةُ والضَّلالةُ[4].

2) ﴿أَعْمَالٌ﴾: (عمل) عامٌّ في كلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[5]، فالعَمَلُ: المِهْنَةُ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غمر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غمر).
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 42.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمل).

والصَّنْعَةُ والحِرْفَةُ، يُقال: عَمَلُهُ البِناءُ والحَفْرُ؛ أيْ: مِهنتُهُ، والعامِلُ: مَن يعْمَلُ في مهنةٍ أوْ صَنْعَةٍ، ورَجُلٌ عَمِلٌ؛ أيْ: ذو عَمَلٍ، وهو يَعُمُّ أفْعالَ القُلوبِ والجَوارِحِ[1]، ويأْتي بِمعنى إحْداثِ الشَّيْءِ وإيجادِهِ[2]، ومِن مَعانيه أيضًا: دَوامُ الشَّيْءِ، والكَسْبُ والتَّصَرُّفُ[3]، وحقيقة العَمَلِ في الآية: كلُّ فِعلٍ يكونُ بقَصْد، أمّا المُراد بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾: فأعمالُهُمُ الّتي يعملونَها غيرُ ذلكَ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

غفلةُ الكفّارِ عن نهجِ الكتابِ أغرقتهم في عملِ السّوءِ بلا حسابٍ

في هذه الآية انتقالٌ من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفّار، إذ يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن الكافِرينَ أنَّ قُلوبَهم في جَهالةٍ وغَفلةٍ عنِ القُرآنِ الكريم، وعمّا تقدَّم من أحوال المؤمنين وحبِّهم للخير، وأنَّ لدينا كتابًا يُسجِّل أعمالَهم عليهم، وللمُشرِكينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصّالحةِ الّتي ذَكَرَها اللّه تعالى من كون قلوبِهم في غَمرةٍ وجهالةٍ عن الحقِّ، هم مستمرّون عليها، ومُعتادونَ لفعلها، مُندفعون في ارتكابها بلا وعيٍ أوْ تدبُّر[5]، وهنالك مَن يُرجِعُ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى المؤمنين، وكذلك سائر الضَّمائر التّابعة، ويؤول معنى الآية بما يتّفق وهذا، فقيل: الضَّمير في ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ للمؤمنين، وقوله: ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أيْ: هي مغمورةٌ بالإشفاقِ مع هذه الأفعال الحسنة، ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أيْ: وللمؤمنين ﴿أَعْمَلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: أعمال صالحة وهي النّوافل دون الفرائض، ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ثابتونَ عليها مُقيمون[6]، وهذا وإن كان مُحتملًا،

(1) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 3/ 435.
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عمل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عمل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 80.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 74، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1307، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 46.
(6) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 612.

لكن يبقى إرجاعُه إلى الكفرة أظهرَ، فحملُه على مقام الذَّمِّ والتّهديد والوعيد هو الأقوى، وهو الّذي سيُفسَّر به الكلامُ لاحقًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع ﴿بَلْ﴾ ودلالتها:

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقاليّ، حيثُ انتقلَ بها إلى ما هو أغربُ ممّا سبقَ من أوصاف المشركين، وهو وصفُ غَمرةٍ أخرى انغمسوا فيها، فغمَرتْ قلوبَهم وأبعدَتْها عن أن تتخلَّق بخُلُق الَّذين هم من خشيةِ ربِّهم مُشفقون، كيف وأعمالهم على الضِّدِّ من أعمال المؤمنين تُناسِبُ كُفرَهم، فكلٌّ يعملُ على شاكلته[1]، وكلمة ﴿بَلْ﴾ المُفيدةُ للانتقال تُرجّح إرادةَ الكفّار والمشركين؛ لأنَّ الغالب فيها أن تنقلَ الأسلوبَ من مدحٍ إلى ذمٍّ، ومن حالةٍ إلى حالةٍ مُغايرةٍ لها.

الانتقالُ إلى ذِكْرِ جهالةٍ أخرى من جهالاتِ المشركين

دلالةُ إضافةِ القلوبِ إلى الضَّميرِ:

أضيف لفظ (قلوب) إلى ضمير المشركين في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيص، فقلوبهم - أيْ: قلوب الكفرة - وحدَهم دون قلوب المؤمنين في غفلةٍ وجهالةٍ، وأمّا قلوب المؤمنين فهي في يقظةٍ وحياةٍ بالإيمان، وهذا المعنى مُستفادٌ من سياق الكلام، فهو مُستقًى من الإضراب الانتقاليِّ، ومن المقابلة بين طرفَي الإيمان والكفر، فإذا كانت قلوبُ المؤمنين وجلةً أنَّهم إلى ربِّهم راجعون؛ لأنَّها منتبهةٌ واعيةٌ، فإنَّ قلوب الكفار مُغطّاةٌ بأغطية تمنعُهم من الانتباه إلى ما يوعَدون، فلا يتصوّرُ منها الوَجَلُ والقَلق؛ بل هي في غَمْرة وضَلالةٍ وجَهالة.

الغفلةُ محيطةٌ بالقلوبِ المنغمسةِ في الضّلالةِ

غرضُ جمعِ القلوبِ:

جُمعت (القلوب) في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ إشارةً إلى كثرة

تنوُّعُ طرقِ الضَّلالةِ وتعدُّدُ الأباطيلِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

الغافلين عن هَدْي القرآن الحكيم المُناهضين لكلِّ خلقٍ قويمٍ، وإيماءً إلى كثرةِ طُرُق الضَّلالةِ، وتعدُّدِ أنواعِ الباطلِ، فالقلبُ هو وعاءُ العقائدِ والأفكارِ، فلمّا جُمِع دلَّ على كثرةِ الضَّلالات وامتداد الأباطيل وتنوُّعها بتنوُّعِ مِلَلِ الكفرِ وأباطيله.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ باستعمالِ مُفرَدَةِ ﴿غَمْرَةٍ﴾:

أهـلُ الباطلِ مُنهمكون فيه غارقون في بحارِهِ بحيثِ لا يرون سِواه

أصل (غمر) يدلُّ على التّغطية الشَّديدة والسِّتر الكامل حتّى لا يبقى للشّيء المُغطَّى أثرٌ، ولذلك يُقالُ للماء الكثير: (غَمْر)؛ لأنّه يغمرُ ما تحته ويُغطّيه، والغَمْرَةُ الانهماكُ في الباطل واللهو، وسُمّيت غمرةً؛ لأنّها تستر الحقَّ عن عين صاحبها، وغَمَرات الموت: شدائدُه الّتي تغشى، وكلُّ شدَّةٍ غمرةٌ[1]، فمُفرَدَة ﴿غَمْرَةٍ﴾ تدلُّ على كامل الانغماس في الباطل والسّوء، بما لا يسمحُ بوجود شيءٍ من الخير معهُ ولو كان يسيرًا، فقد غمَرها الضّلال غَمرًا، كما يُغرقُ الماء الكثير ما تحته فيُخفيه فلا يُبْقي له أثرًا، وعليه ففي مُفرَدَة الغَمرة استعارةٌ تصريحيّةٌ عن الغفلة، حيث شبِّهَتِ الغفلة بالغمرة بجامع السّتر[2] والتّغطية، وفي هذا التّشبيه تشخيصٌ للغفلة المعنويَّة، وكأنّها مكانٌ مغمورٌ بالماء لا يصلُه نداءٌ ولا يَعي شيئًا، ولا ينتفعُ بموعظةٍ؛ فهي غفلةٌ مُستحكمةٌ وظلالة قويةٌ قد أخذت بمجامع قلوبهم، فكانوا لا يخشَون حِسابًا ولا يَرجون نشورًا، وبهذه الاستعارة أدركنا سرَّ كونِ قلوبهم لا توجَلُ من سماع الآيات، بأنّها قد غُمرت وغُطّيت بوابل الضَّلالات، وبذلك تحقَّق الطِّباق بين قلوب المؤمنين الوجِلة وقلوب الكافرين الغافلة والضّالَّة.

غرض تنكير ﴿غَمْرَةٍ﴾:

تفخيمُ غفلةِ الكافرين بيانٌ لسرِّ ضلالهم

نُكِّرت مُفرَدَة ﴿غَمْرَةٍ﴾؛ لتؤكّد المعنى الّذي دلّت عليه مادَّتُها، وهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غمر).
(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد مع حاشية القُونويّ: 13/ 196.

عمومُ تغطيتها لأمرِ مَن وقع فيها، ولبيانِ أنَّ كلَّ مَسلكٍ وطريقٍ سوى الحقِّ المبين هو ضلالةٌ مُضلَّةٌ، وعمَّى مُفلج، وأفاد التنكيرُ تفخيمَ شأنِ تلك الغفلة وتعظيمَ أثرها على تلك القلوب الماكثة فيها، وعلى أنَّها غمرةٌ من نوعٍ عجيبٍ بحيث يرون الآيات ولا ينتفعونَ بدلالاتها، ويسمعونَ الحقَّ ولا يفقهون منه شيئًا.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّة:

غـمـرُ الـقـلـوبِ بالـضَّـلالةِ وتَـدُ خَيمةِ الجهالةِ

دلَّت الجملة الاسميّة ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ على ثبات المشركين في باطلِهم، فلا يتزحزحون عنه قيدَ أنملة، ولا ينفكّون عنه لحظةً، فحياتُهم في الباطل مستغرِقةٌ كلَّ أحوالهم وأوقاتهم، ويُرشّح هذا الثَّبات ما ذُكِر في شأن الاستعارة من الغرقِ في بئرِ الضَّلالة، وتشبيهِ الغفلة بالغَمرة الّتي تغمرُ العقول والقلوب، فلا يبقى لها شأنٌ في النّظَر الموصِل إلى الحقِّ، كما أنَّ الجملة الاسميّة بيّنتْ مَنشأ عدم كونِ قلوبهم لا توجَل من آيات القرآن وبراهينه؛ فهي بمثابة السَّببيَّة المُعلِّلةِ عدمَ انتفاعِهم بالآيات.

نوعُ حرف ﴿مِّنْ﴾ ودلالتُه:

حـــرفُ (مـــن) مـحـمـولٌ على المـــجـــاوَزَة أو الـسّـبـبـيَّـة أوِ الابتداءِ

حرفُ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ يحتملُ البدليَّة؛ أيْ: ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ وغفلةٍ شديدةٍ تُباعدهم عن هذا[1]، فهي بمعنى (عن) المفيدةِ للمُجاوزة، فتكونُ الغفلةُ مؤثّرةً في حركتِهم حتّى إنَّها تُباعدُهم عن طريق الهدايةِ والرُّجوع إلى الحقِّ المبين، أو تكون دالةً على السَّببيّة؛ أي قلوبهم في غفلة بسببِ ما رأوه من أحوال المؤمنين وإقبالِهم على الله تعالى حَسَدًا وحِقْدًا وتجبُّرًا؛ أيْ: قلوبُهم في غَمرةٍ بسببِ رُؤية حالِ المُؤمنين بتقديمِ الآخرةِ على الدُّنيا، وتحتملُ ابتداءَ الغاية أيضًا؛ أيْ: قلوبهم في غفلة تبتدئ من رؤية حال المؤمنين، أوْ من رجوعهم إلى ربِّهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للقريبِ:

الـدَّعـوةُ إلى الـتَّـأمـلِ في حـالِ الفريقيْن المُتناقضيْن

استعمل النَّظمُ الكريم اسمَ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الموضوع للقريب في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ لقُرب ذِكْرِ المُشار إليه، وهو صفاتُ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57 - 61]، وفيه بيانُ المفاصلة بين المتيقِّظين والغافلين، وبين الذين هم من خشية ربهم مُشفقون، وبين الَّذين هم عن خشية ربِّهم غافلون؛ فالإشارة تُقوّي عنصر التَّأمل والتَّفكُّر في حال الفريقيْن المُتناقضيْن، كما تحتملُ الإشارةُ بقرينة ذِكْر القلوب الغافلة عن هذا مقابلَ القلوب الوجِلة للمؤمنين أنْ يكونَ المرجع هو ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، فهم غافلونَ عن الرّجوع والحشر والحِساب والوقوفِ بين يدي اللّه.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الـدّلالـةُ على الـتّـشـريـك والـجـمـع بين هـذه الأعـمـالِ المُشار إليها وما سبقها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ للعطف، عطفتْ ما بعدها على ما قبلَها، وهي دالّةٌ على التّشريك والجمع بين هذه الأعمالِ المُشار إليها، وما سبق ذِكْره من غفلة القلوب وضلالها، وبذلك يجتمعُ وصْفا الكُفر القائم بالقلوب معَ أعمالِ الجوارح المُنحرفة عمّا أمر اللّه به أوْ نهى عنه، فهم لم يكتفوا بالضَّلال القلبيِّ عن الإيمان؛ بل عملوا بمقتضى ضلالاتهم أعمالًا مُنافيةً لأعمال الخير والصَّلاح، وبذلك يحسُنُ العطف للاقتران الخياليِّ الجامع بين الكفر مُعتقدًا والمعاصي عَمَلًا.

نكتةُ تقديم ﴿وَلَهُمْ﴾ على المُسنَد إليه:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُمْ﴾ على المُسنَد إليه ﴿أَعْمَـٰلٌ﴾ تعريضٌ بحقارة أعمالِهم الّتي هي دونَ الإيمان والعمل الصّالح؛ فهي

أعمالٌ صادرةٌ عن الغفلة، وناشئةٌ من مَعين الضّلالة، وهذه الأعمال الذّميمةُ مخصوصةٌ بهم، ومقصورةٌ عليهم لا تتجاوزُهم إلى غيرهم، وإنْ قُصرت الأعمال الذّميمة عليهم فلا أعمال لهم إلّا الغفلةَ والدّناءةَ والشّرور، قال ابن عاشور: "وَلامُ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ للاختصاص، وتَقْديمُ المَجْرورِ بها عَلَى المَبْتدَأِ لِقَصْرِ المُسنَدِ إليْهِ عَلَى المُسنَدِ؛ أيْ: لَهُمْ أعمالٌ لا يَعْمَلونَ غَيْرَها مِنْ أعْمالِ الإيمانِ والخَيْراتِ"[1].

الأعمال الذّميمة مقصورةٌ على المشركين ولا يَنشَطون لغيرها

فائدةُ الجمعِ والتّنكير:

جُمِعت الأعمال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ للتّكثير؛ أيْ: أعمال كثيرةٌ تصبُّ في بئر الضّلالة والهوى، وأمّا التّنكير فغرضه التّهويلُ؛ والمعنى: لهم أعمالٌ كثيرةٌ من أعمال الباطل، هي أردأُ ممّا ذُكِر، ولكثرتِها لا يتّسع المقام لتفصيلها، ولجسامتِها وهولِها لا يحسنُ ذِكْرُها ولا يجمُلُ الإفصاحُ عنها.

أعمالُ الباطلِ إذا تكاثَرَتْ تساقَطَتْ

نكتةُ استعمال مُفرَدَة ﴿أَعْمَلٌ﴾:

استعمل النّظمُ الكريم مُفرَدَة ﴿أَعْمَلٌ﴾ دون (أفعال)؛ لأنَّ العمل هو ما يكونُ عن قصدٍ وإدراكٍ، بخلاف الفعل فقد يكون بغير قصدٍ، ولذلك فإنَّ ما يُنسَبُ إلى الحيوانات هو فعلٌ وليس عملًا[2]، والفعل يُطلقُ على ما يمرّ سريعًا وينقضي ولا يكون له أثرٌ، أمّا العملُ فيُقال لما يكون له أثرٌ باقٍ[3]، ومن ثَمَّ فالتّعبير بالعمل أوْلى من التّعبير بالفعل، لما ذُكِر من تعيُّن القصد، وعُمْقِ الأثر الّذي تخلّفُه أعمالُهم القبيحة.

أعمالُ المُشركين صادرةٌ عن آثمٍ، وأثرُها في الحياةِ جاثمٌ

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ﴾ للبيان[4]، أوْ على بابها من الدّلالة على الابتداء؛ أيْ: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ﴾ مُبتدِئة من أدنى رتبةِ التّكذيب

(مِن) بيانيّة أو ابتدائيّة دالّةٌ على تفاوت أعمالِ الضّالين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 81.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عمل - فعل).
(3) أبو حيّان التّوحيديّ، المُقابسات، ص: 280، والرّاغب، المُفردات: (عمل).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5090.

من سائر المعاصي لأجل تكذيبهم بالكتاب المُستلزم تكذيبَهم بالبعثِ المُستلزم عدمَ الخوف المُستلزم الإقدامَ على كلِّ مُعضلة[1]، وأفادت (من) أنَّ الأعمال تتفاوتُ، وأعلاها الكفرُ والشّركُ والغفلةُ عن الله ولقائِه، وأدناها سائر المعاصي والمُنكَرات.

لطيفةُ استعمالِ ﴿دُونِ﴾:

أعمالُ الباطلِ في سُفْلٍ ودون، وأعمال المؤمنين في رفعةٍ وسُموٍّ

كلمة ﴿دُونِ﴾ مع دلالتها على ما تدلُّ عليه (غير) من حيث المعنى، فإنَّها تضيفُ دلالةً أُخرى يستدعيها السّياق أحيانًا، وهو دلالتها على الدّونيَّة والسُّفْل في المنزلة، ولذلك أوثر التَّعبير بـ ﴿دُونِ﴾، وقُدِّم على التَّعبير بكلمة (غير)؛ أيْ: لهم أعمالٌ تبدأ من دون ذلك، فهم من سُفْلٍ إلى آخر، وتدلُّ كلمة ﴿دُونِ﴾ هنا على المخالفة الكاملة لأحوال المؤمنين؛ أيْ: هم ليسوا أهلًا للتَّحلّي بمثل تلك المكارم السّامية الرّفيعة[2]؛ بل هم أهلٌ للدّون والسُّفْل والأردأ من الأخلاق، واختيرت كلمة ﴿دُونِ﴾ على كلمة (غير)؛ لأنّ المغايرة لا تفيدُ تفاوت أعمالِ الضَّلال، بخلاف ﴿دُونِ﴾ الدالّةِ على أنَّ هنالك أعمالًا ضالّةً بالغةً في الضَّخامة؛ وهي الكُفْر بالله ولقائه والرُّجوع إليه، ثمَّ يعملونَ أعمالًا دونَها في الضَّلال والخطيئة، ونلحظُ في صورة أعمالِ المؤمنين السّابقة أنّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أيْ: أعمالها، فعرّفها وبيَّنها ووصفَها، وهنا عبّر عن الأعمال المنحرفة بأنّ لهم أعمالًا ولم يقدِّم لها نعتًا، فندركُ بقرينة المقابلة أنَّها أعمالٌ شرّيرةٌ ومُنكرةٌ.

سرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ بعد استعمالِ القريبِ:

المشركون في بُعْدٍ شديدٍ وغفلةٍ عميقةٍ

استُعملَ اسم الإشارة للبعيد في قوله: ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ بعد الإشارة إلى أعمال المؤمنين باسم الإشارة للقريب، وسِرُّ استعماله بيانُ بُعد منزلة المُشار إليه في القُبْح، وهو شركُهم وكفرهم المدلول

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 163.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

عليه بكلمة ﴿غَمْرَةٍ﴾؛ فهي المُشار إليه من حيث اللَّفظ، ثم هي دالّةٌ على انغماسهم في الباطل وغمْره إيّاهم، وأبطلُ باطلهم هو كفرهم وشركهم، ففيها مقابلةٌ حسنة بين الفريقيْن، فريقُ المؤمنين المُشار إليه بالقرب، وفريق المشركين المُشارُ إلى غفلته بالبُعد الدّالِّ على القُبْح والتهاوي في الباطل، وتحتملُ الإشارة الأولى بـ (هذا) أنَّ قلوبهم في غمرةٍ من الرّجوع إلى الله تعالى لكفرهم به، ولذا استعمل اسمَ الإشارة للقريب؛ لأنَّ المُشار إليه قريبٌ لفظًا، وهو قوله ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ فكانوا في غمرةٍ من هذا الأمر القريب ذِكرًا، ولمّا تكلَّم عن أعمالهم ذَكَرَ أنَّ لهم أعمالًا ومعاصيَ هي دون ذلك العملِ المُنكَر العظيم، وهو إنكارُهم الرّجوعَ إلى ربِّهم للحساب والجزاء.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ:

جملة ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ في مَحلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿أَعْمَالٌ﴾، وجيء بها جملةً اسميّة؛ لإفادة مُداومتهم وثباتهم عليها؛ فهم مُستمرّون عليها لا يُقلعون عنها، لكثرة انغماسهم فيها[1]، والتَّعبير بهذه الجملة دالٌّ على أنّهم عاملون لها على سبيل الحقيقة، كي لا يُفهم غير ذلك، جاء في تفسير ابن عرفة: فإن قلتَ: ما أفاد قوله تعالى: ﴿لَهَا عَامِلُونَ﴾؟ قلنا: أفادَ نفيَ احتمالِ كونهم مأمورينَ بها، أوْ أنّهم تسبَّبوا في فعل غيرهم لها فنُسِب إليهم، لما أنَّ فاعل السَّبب فاعلٌ للمسبَّب، فنفى هذا الاحتمال ببيان أنّهم بأنفسهم عاملونَ لها حقيقةً[2].

دوامُ المُشركِ على أعمالِهِ قبيحٌ لثباتِ حالِهِ

نكتةُ مجيء المُسنَد إليه ضميرًا:

جاء المُسنَد إليه ضميرًا في قوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ تحقيرًا لهم؛ فهم لسوء أعمالهم أقلُّ شأنًا من أن ينالوا شرفَ التّصريح بذِكرهم، كما أفاد ذِكْرُ المُسنَد إليه بيانَ صدور تلك الأعمال منهم

صدورُ تلك الأعمال الذَّميمة على سبيل المُباشرة والرّغبة والتَّعمُّد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 81.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 210.

على سبيل المُباشَرة دون التسبُّب؛ فيكون توكيدًا على تعمُّدهم تلك الأعمال، ورغبتِهم في عملها ومسارعتِهم من أجلها، وبذلك تتحقَّقُ المقابلةُ بين فريق المؤمنين المُسارعين في الخيرات بأنفسهم وفريقِ الجاحدين بلقاء ربّهم الذين يُباشِرون أعمالهم الذّميمة بأنفسهم راغبينَ فيها مُتعمِّدين لفعلها.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهَا﴾:

التّعريضُ بالأعمالِ الخبيثة المُضادَّة للأعمال المَرضيَّة

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على المُسنَد ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ إمّا لإفادة الاختصاصِ لقصر القلب؛ أيْ: لا يعملون غيرها من الأعمال الصّالحة الّتي دُعوا إليها؛ وإمّا لرعاية الفاصلة؛ لأنَّ القصر قد أُفيد بتقديم المُسنَدِ إليه[1]؛ أيْ: هم لها لا لغيرها عاملون، ففيه تعريضٌ بأنَّ أعمالهم على الضِّدِّ من الأعمال الفاضلة، والأخلاق الفاضلة الّتي ارتضاها الحقُّ سبحانه للمؤمنين، وفيه إيماءٌ بمدح المؤمنين.

معنى اللّامِ ودلالتُها:

المقابلةُ بين الفريقيْن على مستوى المُعتقَد والعمل

(اللّام) في قوله: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ لتقوية العمل[2] شأنُها شأنُ اللّام في قوله آنفًا: ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، وقيل: هي لام الاختصاص[3] وكلاهما مُحتمَلٌ، وبهذا تتمُّ المقابلةُ بينَ كونِ المؤمنين مُختصّينَ بالسَّبق والإحراز للأعمال الفاضلة والخيِّرة، وكونِ الكافرين مُختصّين بالأعمال الضّارَّة والشرّيرة.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

التَّقابلُ بين (سابقون) و(عاملون) يُفيدُ اختلافَ الهدفِ والنَّتيجةِ

عبَّر الذِّكْر الحكيم باسم الفاعل ﴿عَٰمِلُونَ﴾ دون الفعل، فلم يَقُلْ: (يعملون) للدّلالة على أنّهم راسخونَ وثابتون ومُستمرّون على عمل تلك القبائح وما هو أقبحُ، وفي لوحة المؤمنين اختارَ النَّظمُ اسمَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 81.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 197.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 81.

الفاعل ﴿سَبِقُونَ﴾ وهنا اختار ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمن بعمله ينوي التّنافسَ لإحراز الثَّواب والأجرِ النّاجم عن التّسابُق والحصول على الخيرات، وهؤلاء يعملون ولا ينتظرونَ ثوابًا أوْ سَبْقًا أوْ إحرازًا لهدفٍ، فهي مجرّدُ أعمالٍ لا تُنتج ثمرةً مقصودةً، ولذا قال المولى تعالى في حقّهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»